



د/ رابح كنتور

التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية بين العثمانيين والجزائريين من 1519 إلى 1830م

د / رابح كنتور

تاريخ الإرسال: 2019/05/17 تاريخ القبول: 2019/05/29

ملخص:

إن الانصهار الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي حدث بالجزائر منذ ارتباطها بالخلافة العثمانية بين الأهالي والعثمانيين نابع من التعايش الديني والحضاري بين البلدين، وقد نلاحظ ذلك من خلال التزاوج المختلط بين الطرفين الذي شكل فئة سكانية جديدة بالجزائر، إضافةً إلى امتزاج بعض العادات والتقاليد التي تركت بصمتها على سكان البلدين إلى وقتنا الحاضر، وقد كان الدين الإسلامي العامل المشترك الذي أسس لذلك باعتباره العمود الفقري لسكان البلدين.



د/ رايح كنتور

الكلمات الدالة:

الخلافة العثمانية - الكراغلة - الجيش الانكشاري - اللباس.

مقدمة:

بعد ارتباط الجزائر بالخلافة العثمانية سنة 1519، حدث اختلاط وانصهار بين سكان البلدين وتأثر كل طرف بالآخر وأثر فيه في عدة جوانب اجتماعية واقتصادية وثقافية، خاصة أن عنصر الدين الإسلامي المشترك بين الطرفين سهل مهمة ذلك، فما هي المجالات التي تأثرت بها الفئة السكانية العثمانية خلال تواجدها بالجزائر؟ وكيف تأثر سكان الأهالي ببعض العادات والتقاليد العثمانية في مختلف الميادين؟ هذا ما سنتعرف عليه في هذا المقال التاريخي.



د/ رابح كنتور

1 - ظهور فئة الكراغلة:

تكونت هذه الفئة السكانية نتيجة الزواج المختلط بين أفراد الانكشارية والنساء الجزائريات، التي ظهرت لأول مرة في المدن التي تمركزت بها الحاميات العسكرية العثمانية وهي كل من مدينة الجزائر، وتلمسان ومعسكر، ومستغانم ومازونة والمدية، والقليلة وبسكرة وقسنطينة وعنابة(1).

إن ظهور العنصر الكرغلي كفئة مستقلة ومتميزة تعود إلى أول إشارة رسمية إلى جماعة الكراغلة عام 1596م(2) وسادت العلاقة بين الآباء والأبناء خوف وارتباب، فقد تخوف الآباء من تزايد عدد الأبناء، وهذا ما دفع الحكام الأتراك إلى الاحتراز منهم، والحيلولة دون توليهم الوظائف السامية في أجهزة الجيش والادارة، كما منع عليهم الانخراط في الديوان، وفي الوجداق، وكان المجال الوحيد الذي فسح لهم هو الغزو البري في بادئ الأمر.



د/ رايح كنتور

ووصل بهم الأمر إلى الاصطدام مع السلطة العثمانية في الجزائر عدة مرات وذلك في السنوات التالية: 1626 و1628 و 1633، لكن يبدو أن وضع الكراغلة تحسن عقب أحداث تلمسان بين 1738 و 1746، حيث اسندت لهم الوظائف الادارية على مستوى الادارة المركزية والمحلية، (3) بل أن أغلب الوظائف على مستوى الإدارة المحلية في دار السلطان بمدينة الجزائر كانت من نصيب الكراغلة، أما في الفترات اللاحقة فقد بين استقرار دراسة دفاتر المخلفات أنهم انخرطوا في الجيش، و كانوا أصحاب رتب عالية (4)، رغم ان صفة أو تسمية الكرغلي، قلما ترد في الوثائق، إلا أن قراءة الأسماء تساعد على التأكد من هويتهم، مثل باكير آغا بن حسن التركي(5)

2 - اللباس:

إن ما وصل إلينا من معلومات بخصوص اللباس العسكري الرسمي للجيش الجزائري خلال العهد العثماني،



د/ رايح كنتور

تضمنته ملاحظات الرحالة وتقارير القناصل، ووصف القساوسة أثناء قيامهم بافتداء الأسرى المسيحيين، ويعتبر مصدر "هايدو": في كتاب "طبوغرافية وتاريخ مدينة الجزائر"، الشاهد الوحيد على خصوصيات موضوع اللباس الجزائري في العهد العثماني بصفة عامة.

يذكر "هايدو" عن وصول المتطوعين الجدد إلى الجزائر، بأن الجندي كان يرتدي لباسا تركيا، استقدمه معه من بلاد الأناضول، أو من مدن أخرى تابعة للدولة إذ يقول: كان اللباس يتشكل من سروال طويل يهبط حتى أسفل القدمين، وهو عريض و ذو ألوان زاهية، و كانوا يضعون قميصا ذا أكمام طويلة، و على رؤوسهم قبعة مصنوعة من الصوف، و يلبسون نعلا من الجلد في أسفلها توجد أربع صفائح حديدية(6)

و تشير بعض الوثائق العثمانية إلى أن الجنود الجزائريين كانوا يتمتعون بقسط وافر من الاهتمام لدى



د/ رايح كنتور

السلطات وقتئذ، فخلال القرن الثامن عشر، كانت الدولة عند تسجيل الجندي الإنكشاري في دفتر الأجور، ملتزمة بتقديم له بدلة عسكرية تتكون من قميص خشن، و صدرية و عمامة خضراء و سروال من القطن و معطف و شاشية، و حزام أحمر و زوج من الأحذية، و غطاء من الصوف ضيق قصير(7)

ويفيدنا كتاب اللباس الإسلامي في الجزائر بمعلومات في غاية الأهمية عن اللباس الانكشاري عند وصوله إلى مدينة الجزائر، حيث تتحمل الحكومة أعباء نفقاته من الملابس والمأكل، وكانت البدلة العسكرية المقدمة للجندي تشمل غطاء من الصوف وقميص و صدرية، و سروال و شاش أحمر يستعمل كحزام و معطف من نوع القفطان و قبة(8)

وفي الحقيقة أن الجندي الانكشاري قد تأثر باللباس الجزائري فارتدى البرنوس البربري الذي عوض القفطان



د/ رايح كنتور

التركي، وأصح البرنوس اللباس الرسمي للجنود أثناء قيامهم بالحملات خاصة في فصل الشتاء(9)

إن التغيرات في البيئة العسكرية العثمانية التي أدخلها سليم الثالث (1789- 1707) بواسطة النظام الجديد وأكملها السلطان محمود الثاني (1807 - 1839م) في بداية القرن التاسع عشر، قد أدت إلى شيء من العصرية في لباس الجيش الجزائري العثماني، وحل الطربوش محل الطيلسان، وكان القفطان قد صمم ليعطي مكان حمل السيف والمسدس، وبدأت سراويل تلبس فوق أحذية عالية ملساء من الجلد، والجندي الذي ينظم إلى حملة بحرية من أجل الحصول على سهم من الغنائم، يضطر إلى حمل بندقية ومسدسين وسيف وكيس من البارود وغطاء، أما أمتعته فيضعها في كيس خاص به، بينما المتطوع في السفينة فغطاؤه من نوع الحايك الذي هو لباس من الصوف الابيض يغطي الجسم كله ويحيط به(10). ومن الملاحظ أن خلال القرن الثامن عشر أدخلت عدة تعديلات على لباس



د/ رايح كنتور

الجيش، بسبب تأثر الاتراك باللباس الجزائري من جهة، وبالألبسة الأوروبية من جهة ثانية بعد احتكاكهم بالأوروبيين أثناء المعارك البرية.

3 -الغذاء:

تأثر الجيش الانكشاري بالنمط الغذائي الجزائري، فحياة البحارة كانت قاسية جدا عند ركوبهم البحر، فوجبات الأكل على ظهر السفينة كانت توزع على شكل حصص، وجبة الفطور تتضمن القهوة و السجائر، و أحيانا الخبز و الزيتون، بينما وجبة الغذاء عبارة عن حساء مغلي و لحم جاف من نوع الخليج مغلي بالزيت. أما وجبة العشاء غالبا ما تكون من الكسكسي الجزائري (11) كان الجندي الانكشاري يدخل الحياة الاجتماعية من خلال الامتيازات التي يتمتع بها، فيتحصل بمقتضاها على المواد الغذائية بأسعار منخفضة كاللحم الذي يباع لطائفة الجند بثالث السعر الرسمي في السوق، و الخبز الذي يوزع على



د/ رايح كنتور

الانكشارية بمعدل أربع خبزات صغيرة يوميا للجندي الأعبز و ثمانى أرغفة يوميا للضابط من صف البولوكباشى (12). كما أصبحت وجبة غذاء يوم الجمعة تتمثل في الكسكسي الجزائري الذي يحضر للإنكشارية بصفة مستمرة.

أ. التأثير على الوضع الاجتماعي:

أ - التضامن بين العلماء والجنود وعامة الشعب:

لم تقتصر حياة الجنود على الإقامة في الثكنات والنوبات، بل انعكس وجودهم العسكري داخل المجتمع الذي كان ينظر إليه بالمنفعة العامة لردع التحرشات الأجنبية وتحقيق وحدة تراب الإيالة، فكانت الروابط الاجتماعية تزودها درجات التقدير والانصهار الثقافى عبر جسور المساجد والزوايا والعلماء، فانصهرت المصلحة المشتركة في وضع قواعد وقيم المجتمع وتجلت ذلك في احتكاك العلماء بالجنود في عدّة مناسبات حربية نذكر منها ما يلي:



د/ راجح كنتور

- مشاركة العلماء والأئمة والطلبة كمتطوعين من الجزائريين إلى جانب جند الانكشارية لصد حملة شارلكان على مدينة الجزائر عام 1541م.
- مساندة المتطوعين الجزائريين لجند الإنكشارية في جيش الباي محمد الكبير سنة 1791، حيث رحبت مختلف أصناف جند الإنكشارية بمجموع وعلماء الزوايا القرآنية كمتطوعين إلى جانبهم عدد من المتطوعين الحرفيين كالحدادين والخشابين، فكانت تركيبة الجيش مزيجاً بين العسكرية العثمانية وأوتاد من الطلبة المتطوعين الذين كان لهم الفضل في النصر على الإسبان وفتح وهران تحت راية أصحاب الزوايا وعلمائها منهم سيدي عبد الرحمان الطالبي وسيدي بومدين وسيدي محمد بن عودة (13) الذين أمروا طلبة ولاياتهم ببث القوة الروحية الإستشهادية في صفوف جند الانكشارية.



د/ رايح كنتور

رغم كل الظروف التي أحاطت بالحدث فإن الذي جمع بين العثمانيين والكراغلة وقبائل المخزن والجزائريين والطلية المتطوعين من الزوايا القرآنية تجلّى في الإحساس بروح التضامن والأخوة (14). ومن جانب آخر قدّمت الأحداث التاريخية في عهد الداى عمر باشا نموذجاً عن التعاون بين السكان الأهالي والحرفيين والبنائين والانكشاريين بصقل الحجارة من المهاجر لإعادة بناء الأبراج (15) التي دمرتها الحملة البحرية الإنجليزية الهولندية على الجزائر، فكان الباشا المشرف الرئيسي على ذلك والمحفز لهم بمضاعفة الأجر اليومي لكل فرد مدني وعسكري (16) ونفس مظاهر التضامن والتعايش تجلّت بين الجزائريين المدنيين والجنود المتقاعدين والعسكريين النظاميين وفئة الخطابين خلال اشرافهم ومداومتهم على عدة حصون دفاعية بأحواز مدينة الجزائر، وكانت ثكنة مرسى الدبان قمة في الأخوة والتعاون للدفاع عن المدينة من الاجتياح والتهديد العسكري الفرنسي يوم 10 ماي 1830م(17).



د/ رابح كنتور

ب - الانفتاح الثقافي و التعايش المذهبي:

رغم أن جند الانكشارية حملوا معهم العقائد والتقاليد و الطريقة البكداشية (18)، إلا أن هويتهم وطبائعهم سرعان ما انصهرت واندمجت في الثقافة الاجتماعية للسكان الجزائريين في المدن والأرياف، فاقتربوا من زوايا أصحاب البركات طالبين من أوليائهم النصر ودوام الخيرات على أهاليهم، و للتعبير على شعورهم الديني اتّبع بعضهم الطرق الصوفية كالشاذلية والقادرية وساهم آخرون في بناء المساجد والمكتبات، وأوقف بعضهم أوقافاً خيرية فاشتركوا بمحض إرادتهم في مؤسسات الوقف (19).

لقد كانت زاوية شيخ البلد بمدينة الجزائر مقتصرة على الطلبة العثمانيين في المدن يقصدها شباب و أطفال من العائلات الانكشارية قبل انضمامهم إلى جند الأوجاق، وهذا ما جعل أصناف جند الانكشارية يساهمون في ترقية هذه الزوايا، خاصة الأغوات الذين كانت لهم إسهامات في ذلك، فكانت زاوية القاضي المالكي التي أسسها مصطفى



د/ رايح كنتور

بن مصطفى آغا الصبايحية بمدينة الجزائر قد خصصت لإسكان علماء ومريدي المذهب المالكي من ريعه الخاص من منطلق الإحسان للمجتمع وبعث التعايش بين المذهب الحنفي والمالكي واستمراره في نطاق كل الممارسات الاجتماعية و المعاملات الاقتصادية (20). كما ساهم ضباط الانكشارية من أصناف البولوكباشية في الاندماج الثقافي، حيث بادر الحاج مصطفى البولوكباشي بإنشاء مدرسة لتعليم القرآن الكريم بالقرب من محيط جامع خضر باشا بمدينة الجزائر (21).

ومن هذا المنطلق فإن إقامة العمران التعليمي الثقافي في وسط الأحياء الأهلة بالسكان والمساجد والكتاتيب، ساهمت في ترابط الأجيال واستحضار الأخوة والمعاملات والممارسات اليومية بين التركيبة السكانية في مدينة الجزائر.



د/ رابح كنتور

ج - الأوقاف والمعاملات الاجتماعية:

يشرف على عقارات الأوقاف موظفون وفئات من جند الإنكشارية تعينهم سلطة الباشا والديوان والبايات في صفة وكلاء أو نظار يتصفون بشخصية مثالية في المجتمع باعتبار أن منصب الوكيل منصباً تشريفياً وتكليفياً يخضع للتزكية والمراقبة من قبل الشرائح الاجتماعية الحضارية، التي قد تكون كذلك سبباً في إقالته بشهود من الرعية بحجة سوء استخدامه لمداخل الأوقاف(22).

كثيرا ما يقوم الداي أو الباي بتحريات دقيقة لتزكية وتعيين شخصية ورعة وتقية في منصب شيخ النادر لحساسية هذا المنصب الذي له صلاحيات واسعة في مراقبة وضعية الأوقاف بمعية مجلس الأوقاف المتكون من شيخ البلد وناظر بيت المالجي و أحد ضباط الإنكشارية (23).

أما عن نشاطه فإن جل أعماله و إجراءاته وخدماته منطلقها الأعمال الخيرية الاجتماعية والثقافية، ومنح المعروف للمعوزين والأمان والأمن الاجتماعي، والسهر على



د/ رايح كنتور

مداخل الأوقاف المختلفة وتوزيعها على مختلف المداخل العامة لتعود بالأحسن على المحسنين وعلى أصحاب الثروة والعقارات بالثواب، وعلى المدينة بالصيانة الدائمة، لبنايتها الدينية والثقافية وتحقيق بعض الخدمات للسكان الحضر ومرافقهم العامة كتوفير المياه والعيون ومد الطرقات.

استطاعت بذلك مؤسسات الأوقاف بما تتميز به من صبغة دينية وما توفره من خدمات ثقافية واجتماعية أن تحتفظ على الإنسجام الثقافي لشرائع واسعة من المجتمع وأن تقوي بنية معاملته الحضارية والإدارية، وأن تجعل جند الإنكشارية بمختلف رتبهم طرفاً في تلك البنية بفضل جهود ودور الوكلاء والنظار ومجلس الأوقاف(24).

د - عادات جند الإنكشارية وصفاتهم:

رغم أن جند الإنكشارية يقضون جل أوقاتهم في الخدمة العسكرية إلا أن لهم ميل كبير للحياة المدنية والرغبة في بناء الأسس الحق للأسرة العثمانية أساسها الزواج والبنين والثروة والأموال لتأمين بقاءهم واستمرارية



د/ رايح كنتور

هويتهم وألقابهم، ولترسيخ تلك المظاهر كانت أعمالهم في الوسط الاجتماعي الحضري تتميز بالمرونة والاحترام للقواعد والقوانين المدنية والممارسات السكانية مع مختلف الشرائح، خاصة الأعيان والأشراف من العائلات المرموقة، فكانوا نادراً ما يقتربون سرقة أو قتلًا عمدياً، وإن صدر منهم ما يمت بالذم والمنكرات فإنهم يجتهدون لوضع قواعد لإصلاحها وإخفائها عن العامة والرعية، لأن مستقبلهم متوقفاً على سلوكياتهم وحسن سيرتهم بالإيالة (25).

فالعثمانيون كانوا متمسكين بفضائل عاداتهم الإسلامية التي تحرّم عليهم ممارسة ما يخالف الشرع والنظم والتقاليد الاجتماعية والعربية، فكانوا أرقى في معاملاتهم الإنسانية الإسلامية لا يعبثون بكلمات الله ولا يذمّون أفضاله ونعمته بين الناس، بل كانت البسمة في أفواههم، ومن خلال أفعالهم وتصرفاتهم، وحتى في تأدية فرائض وأركان العقيدة الإسلامية (26). فكان من النادر جداً أن تتعدّد الخصومات بينهم خوفاً من فرض القوانين العقابية



د/ رايح كنتور

عليهم من قبل السلطة العسكرية ورموز الديوان الذين كانوا يسهرون على تطبيقها.

لقد اعترف (هايدو) بالحالة الصحية والنظافة البادية على ملامح العثمانيين وجند الإنكشارية خاصة، ففي وصفه لفرسان الصبايحية ذكر أن مزاجهم وبزتهم كانت نظيفة وأسلحتهم تسر الناظرين بلمعانها (27). وهذا راجع لحرص الزوجات على نظافة بدلات أزواجهن واعتنائهن بلوازمهم العسكرية وحسن ترتيبها داخل الخزائن (28).

أما النمط الاستهلاكي للإنكشارية من مختلف اللحوم المعروضة في الأسواق الحضرية فغالبا ما كانوا يستهلكون لحم الضأن والبط، والدجاج والأسماك، ولكن كانوا يتمادون في استهلاك لحم الجمال وطهيها على الطريقة البدوية الصحراوية خلال تواجدهم بالصحاري أو السهوب خلال الخدمة بالمحال أو النوبات (29).

وكانت من شيم جند الإنكشارية التباهي بالشجاعة أو الإقدام (30) من خلال ملامحهم وطريقة معاملاتهم



د/ رابح كنتور

الاجتماعية والاقتصادية التي اجتمعت في مظاهر قوة شخصيتهم بإحداث علامات أو شرح في ساعدتهم الأيسر وتضميده بشيء من الزيت، وما تلك إلا رمزية من رموز طرد الشر حسب اعتقادهم، والتي تمهد لهم سبل الحياة التي يسرّها الله سبحانه وتعالى(31).

أما العامل المشترك الذي شكل الحلقة الاجتماعية الموحدة لكامل مجتمع إيالة نجده في المقامات والمزارات وأضرحة الأولياء الصالحين التي كان عمرانها قبلة لكل شرائح المجتمع، إضافة إلى مواسم الحج التي تنظم عبر رحلات القوافل البرية والتي كانت تشرف عليها أسر ذات مكانة دينية واجتماعية بالمدن والحواضر، شرف علماؤها وشيوخها بأمير ركب الحج كأسرة الفكون بقسنطينة(32).

2 - المصاهرات والممارسات الاجتماعية:

أغلب الدراسات العثمانية عن مجتمع إيالة الجزائر ركزت على التركيبة السكانية كأساس لمعرفة الطبقة



د/ رايح كنتور

الاجتماعية وثرواتها وسلطتها السياسية والاقتصادية من
عثمانيين من كراغلة وأعيان المدن وأشرف الأسر المحليّة
والأهالي واليهود وغيرهم، دون تسليط الضوء عن التعايش
الحضاري والاجتماعي والتمازج الحاصل بينهم لمدة ثلاثة
قرون في بنية اجتماعية واحدة (33)، فكان من الأهمية أن
نرفع كل التباس وغموض عن الشريحة العثمانية
الانكشارية التي امتزجت بالتركيبة السكانية للإيالة
بالممارسات والمعاملات، وأضحت من الأعمدة المكوّنة لحلقة
البنية التحتية الاقتصادية بثرواتها وعقاراتها وملكيّاتها. فعن
أحوال الزواج ويسره ذكر حمدان خوجة أن الأجناد
العثمانيين في الجزائر لم يجدوا صعوبات في الاقتران من
شئ الشرائح الاجتماعية الجزائرية رغم اختلاف المذهب
الديني، ونفس الشيء ذهب إليه المؤرخ "فونتير دو بارادي"
حيث أشار أن جند الانكشارية لم تكن لهم مشكلات في
طلب الزواج من البكر والثيب من بنات الحرفيين والمدنيين،
فكان تقدمهم للزواج مبنيًا على احترام التقاليد الأسرية
للمجتمع الجزائري وأركان الزواج والصدّق(34). وللعلم



د/ رابح كنتور

فإن طلب الزواج يمهّد له بتسريح قانوني من الأغا الذي يوكل كاهية العسكر بصياغة وثيقة يستظهرها اليولداش أمام القاضي لتسهيل عقد زواجه وتسجيله في سجلّات العدول والزواج وتخضع صفة القبول والإذن بالزواج لسيرته وأقدميته ودخله.

أورد حمدان خوجة أن الجند وجدوا كل التسهيلات في الاقتران بالمرأة الجزائرية وذكر بأنهم كانوا شديدي الحرص على احترام عادات البلاد ليحببوا أنفسهم إلى سكان الإيالة، ومن كانت لهم بعض المساوئ كانوا يعملون على إصلاحها أو يخفوها بدقة للأسباب التي ذكرتها ولأن مستقبلهم مرهون على حسن سيرتهم، وقد تسهل سيرتهم سهوية اختيار الأزواج من الأسر المحافظة في المدن والحواضر والقبائل ذات السمعة الإدارية والعسكرية (35).

لقد ساعدتنا سجلات الزواج والطلاق والمعاملات الاجتماعية بأرشييف ولاية قسنطينة في معرفة شبكة



د/ رابح كنتور

المصاهرات وقواعدها الإسلامية وتقاليدها الجزائرية المتعلقة
بالمهر والصداق (36).

إن أغلبية جند الإنكشارية بمختلف رتبهم جابوا
مواقع عديدة من الإيالة، ابتداءً من مدينة الجزائر مروراً
بالنوبات والمحال الخاصة لجمع الضرائب والحملات
العسكرية، ورغم الخدمة العسكرية إلا أنهم بنوا تراتيب
انصهارهم وزواجهم في المدن الحضرية بنسبة كبيرة، وفي
النوبات والقبائل الموالية والأسر المحلية بدرجة متوسطة، قد
تكون أسباب ذلك القرب من الإدارة ومؤسسات القضاء
لتحقيق الأمن والرخاء والصناعات والعمران الذي تنعم به المدن
دون الأرياف، فطبيعة الأسر الحضرية القائمة على القوانين
الوضعية المنظمة للوسط العمراني الحضري والمحافظة على
الإرث المالي والتركات والعقارات التي تهيئ لهم ظروف
إثبات الشخصية والألقاب المدنية (37)، والعسكرية
والانتساب والنسب واكتساب المكانة الاجتماعية.



د/ رابح كنتور

3 - الطلاق والخلع:

يكون الطلاق والخلع في حالات مختلفة وأسباب متعددة لحل العلاقات الزوجية التي تتعلق بالغبن المستحکم الذي تعيشه الزوجة أو لإيداع بعلمها لها أو تخلي الزوج عن الإنفاق الأسري، أو لغيابه عنها لأكثر من سنة، فإن قضاة المذهب المالكي كانوا حرصين على تماسك الأسرة وحماية المرأة المطلقة من كل ما يمس بمصيرها ومصير أبنائها، وإقرار حقوقهم خاصة النفقة الأسرية حتى ولو كانت الزوجة غنية، أو ذات سلوكيات سيئة، وتلك المظاهر المتعلقة بسوء خلق المرأة أو سوء معاشرتها لزوجها لم تسجلها عقود الطلاق بالتفاصيل إلا أنها حددت المسؤولية الشخصية الناجمة عن الطلاق ونوعيته لذا فئة الانكشارية (38).

ورغم ما دون في سجلات المحاكم المالكية من أنواع الطلاق الإسلامي، إلا أن النساء أو الزوجات الجزائريات كن يعبرن عن طبيعة إنهاء العلاقات الزوجية بطريقة سلوكية طريفة أوردها وبينها (هايدو) في كتاباته، حيث



د/ رايح كنتور

ذكر أن المرأة التي تود الخلع من زوجها تتقدم إلى حضرة القاضي في سكون وحياء دون أن تحاوره، فترع حذاءها وتقلب إحدى الزوجين بحيث يظهر النعل تماماً، فيدرك القاضي مقصدها بالخلع من زوجها برمزية خلع الحذاء وكرها لزوجها الذي تظهره بالنعل (39).

4. عمليات البيع والشراء:

ارتبطت الحياة الاجتماعية والاقتصادية للانكشارية بالمعاملات المالية والأسواق والبيوعات ونقل الملكيات خاصة داخل المدينة غايتهم تحقيق المنفعة والاستقرار حرصت على أن تكون معاملاتهم مع مختلف الشرائح الاجتماعية خالية من بيع الغش والمجهول، وبيع الإكراه لوجود سلطة القوانين التي نظمت الممارسات والمعاملات المالية والاجتماعية عبر رمزية المزوار والقاضي الذي كان له دوراً في توثيق عقود البيع والشراء على المذهبين المالكي والحنفي (40).

إن أغلبية العقود جمعت في طياتها نوعية النقود المتداولة وطريقة نقل الملكية الاستثمارية العمرانية الثابتة



د/ رابح كنتور

والمتقلة من شخص لأخر، وصنفت الثروة المالية لمختلف الشرائح الاجتماعية والمستوى المعيشي لدى جند الإنكشارية وأبنائهم وحملت في طياتها عمق المعاملات والمظاهر الاقتصادية للإيالة. (41)

II. التأثير الاقتصادي:

أ - الاستثمار الحرفي و التجاري للانكشارية:

بحلول القرن الثامن عشر الميلادي اتسعت الأعمال الحرفية والتجارية للجند الإنكشاري في الوسط السكاني بتركيباته المختلفة بالمدن الحضرية وأسواقها الداخلية. وكانت دوافعهم زيادة الرساميل لرواتبهم وعوائد خدماتهم العسكرية والإدارية، فاستطاعت أصناف الجند المزج بين مهامهم العسكرية والعمل المأجور من بعض الحرف البسيطة (42) من قدومهم إلى الإيالة، وتمكنت من استغلال العطلة السنوية في العمل الاستثماري المنظم الذي قوامه الثروة المعتبرة، وهدفه الربح والمنفعة الاقتصادية و الاجتماعية المبنية على أساس التكافل بين أفراد المجتمع من



د/ رايح كنتور

منتج إلى مستهلك لذا كان من أولويات المتطوعين العسكريين الانكشاريين الجدد الاحتفاظ بمكاسبهم الحرفية واستغلالها في زيادة الثروة المالية والعقار الحرية والتجاري، وتطويرها وفق متطلبات السكان الاستهلاكية(43).

لقد مارس اليولداش مختلف الحرف والمهن خلال عطلم السنوية وحتى بع ترقيةهم أو إحالتهم على التقاعد "مازول"، فأبدعوا وتنافسوا في مهارات إصلاح الأثاث والأدوات الموسيقية وتخصصوا في صناعة المرايا والحلي وفنون زخرفة الحديد، كما مارسوا حرفة الخياطة ومستلزماتها وصناعة دباغة الجلود الخاصة بتجهيزات البهائم والأحصنة، إلى جانب ترقيع الأحذية(44).

وخير مثال ما مارسه "محمد عثمان" باشا بمدينة الجزائر من حرف، فبعد تجنيده واستقدامه إلى الجزائر من إقليم كارمان بجنوب الأناضول وإدماجه في الجيش الانكشاري في صف اليولداش تعرض للعزل من منصبه



د/ رابح كنتور

لظروف غامضة، فاضطر أن يفتح دكانًا يصنع فيه أحذية لأصدقائه من الجيش الإنكشاري وحتى للسكان، فازدهرت حرفته لجودة معروضاته ولأمانته بين الناس (45)

أما عن التعايش بين الحرفيين وأهل البلد الجزائريين، وطائفة العثمانيين المدنيين والعسكريين خاصة بالمدن والحواضر فتميزت بسهولة الاحتكاك ومرونة المعاملات وقابلية التأثير وساعدهم في ذلك التموقع في عمران متقارب أو ديار جماعية، وذلك ما أورده المؤرخة "فاطمة الزهراء قشي": "التقينا بثلاثة منهم في دار ابن وطّاف بسيدي جليس وهم سي الخوجة بن طبال العجمي، وسي اسماعيل الإنكشاري، وسي الخوجة بن طوسيالي لم يكونوا يهودًا وقد شهدوا في تصريح بوفاة مسلم أو مسلمة، ولكن الأسماء تكشف عن أصلهم الوافد ويحمل الطابع التركي والعثماني(46).

فدار ابن وطّاف بسيدي جليس بمدينة قسنطينة جمعت ثلاث عائلات مختلفة الأصول والفروع والوظائف



د/ رايح كنتور

الحضرية تحت سقف واحد، وحدّتها حرفة التطريز المكتسبة بالانتساب أو التوارث الحرفي العائلي، ومن ذلك لا نستبعد المصاهرة بينهم للحفاظ على سيرورة الانتاج واستدانة الحرفة في ظل المنافسة الشديدة من طائفة أهل الذمة اليهود.

وإلى جانب آخر نجد بعض العائلات الإنكشارية بقسنطينة اختارت التموّج بالقرب من مساكن أهل البلد وأصحاب الخرف، وذلك ما وصفته فاطمة الزهراء قشي عن دار مراد: "قرب كوشة الزيات بباب الجابية بلغ عدد سكانها ثمانية من بين اليهود أو المصرحين ومنهم أربعة سبايسية أو صبايحية فرسان المخزن أو البايك، واثنان عرف كل منهما نفسه بالعسكري حرفة (47)".

فساهمت بذلك الذاكرة الشعبية لمجتمع الإيالة في الإحتكاك والتواصل بين مختلف الشرائح الاجتماعية المهنية والحرفية وفي التقارب اللغوي بين السكان الحضر وسكان الأرياف والعسكريين والمدنيين والإداريين بالممارسات اليومية الذي كان شريانها مهن بسيطة لها تأثير في المجتمع



د/ رايح كنتور

مثال على ذلك الحلاقة التي امتنها الانكشاري الرايس محمد بن محمد الذي امتلك محلا للحلاقة أصبح لورثته من بعده حسب العقد القضائي الموثق في تاريخ جوان 1782 م (48).

ب - الإقطاعية ظاهرة اجتماعية واقتصادية:

شاعت ظاهرة الإقطاع الفلاحي العسكري بين جند الإنكشارية في القرن الثامن عشر ميلادي وبداية القرن التاسع عشر ميلادي، تعلقت بواقع الملكية الزراعية بالفحوص والجنان المتواجدة بفحوص المدن والحواضر لما لها من آثار على وثيرة الاقتصاد والانتاج وفي تشكيل البنية الاجتماعية نتيجة انتقال عدة تجمّعات ريفية نحو المدن بحثًا عن المنافع المادية والاجتماعية.

ولقد كان من دوافع انتقال البورجوازية العسكرية من حياة التمدن إلى فضاء الريف ونتاجه وتراجع نشاط الجهاد البحري وقلى العوائد المالية الداخلية، وتغير نمط حياة بعض القبائل المخزنية التي تأثرت بالتمدن نتيجة



د/ رابح كنتور

علاقتها بالبياكل الإدارية العثمانية وموظفيها، هذا ما أكده عثمان خوجة بأن حياة التمدن كانت تستهويهم وتجعلهم يغادرون أراضيهم نحو المدن، خاصة الساحلية المشتهرة بالنشاط البحري وعندئذ يتركون جبالهم إلى الأبد ويستقرون في المدينة (49)، عكس قبائل الرعية التي كانت تفضل أعمال الصخرى وخدمة أراضي البايك في الفحوص والأوطان بدلا من امتلاك الأرض (50).

من جهة أخرى قد تكون العلاقات الإدارية والعسكرية بين أغوات النوبات والمحال، والعائلات المحلية وقبائل المخزن في بعض الأقاليم في إطار الحملات العسكرية التأديبية ضد بعض القبائل المتمردة والرافضة لدفع الضرائب التي عادة ما تكون أراضيها محددة بالعرف أو الشهرة، والتي لا تعترف سلطة البايك بملكيتها (51). وتجدر الإشارة أن مهام قياد الأوطان وشيوخ المخزن وآغا العرب في الأرياف والدواوير وسعت من ملكية أراضي البايك واستغلالها، حيث كانوا يجبرون الفلاحين وبعض



د/ رابح كنتور

القبائل بدفع مستحقاتهم المالية النقدية والعينية التي غالباً ما كانت ترهقهم وتجبرهم على مغادرة أراضيهم، وكل ذلك يمهّد لإجراءات تصفية الملكية الفلاحية وعرضها على آغا العرب المتصرف في شؤون الأوطان والذي بدوره يسلمها إلى الباي أو الداى (52)

وفي الأخير نشير إلى أن عملية التأثير والتأثر كانت متبادلة بين الجزائريين والعثمانيين في شتى المجالات الاقتصادية التي تمثلت في النظام الضريبي الذي كان سائداً في إيالة الجزائر بالإضافة إلى تأثر الإنكشارية بتقاليد ونمط الحياة الاجتماعية خاصة في مجال الزواج والمصاهرة وتأثرهم بالعادات والتقاليد المختلفة خلال فترة التواجد العثماني في الجزائر.



د/ رايح كنتور

الهوامش:

- 1 - ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، وزارة الثقافة، الجزائر، ص94.
- 2- Boyer (P): « La probl me Kouroughli dans le r gence d'Alger ». Revue de l'occident Musulman et de la M diterran e, 1970, N  sp cial, P.80.
- 3 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص95.
- 4 --الأرشيف الوطني الجزائري، سلسلة البايك، سجل رقم 13 و17. نفس المصدر.
- 5- Haedo (D.H) : « Topographie et Histoire g n ral d'Alger », traduction Monnereau et A. Berbugger, in R.A. N 14, 1871, Pp41-45.
- 6- Venture de Paradis: Tunis et Alger au 18eme si cle, pr sent  par Joseph cuoq  dition Sindbad, Paris, P.159.
- 7- Georges Mar ais: Le Costume Musulman d'Alger, Plon, Paris, 1930, P.66.
- 8- Boyer (P): « Introduction a une histoire int rieur   la r gence d'Alger », in Revue historique, avril-juin 1966, pp.297-316.
- 9- Belhamissi (M): Histoire de la marine Alg rienne (1516-1830), Alger 1983, P.118.
- 10- Playfair (R.L) : « Episodes des relations et de la grande Bretagne avec les Barbaresques avant la conqu te fran aise », in R.A, 1980, p 34.
- 11- Shaler (W) : Esquisse de l' tat d'Alger , Saint Denis, Bouch ne, Alger, 2001, p 260.



د/ رايح كنتور

12- Belhamissi. M, op.cit, p 130

13- Keddache. M : L'Algérie durant la période ottomane, O.P.U, 2003, P 140.

14 - أحمد بن هطال التلمساني: رحلة محمد الكبير، باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق و تقديم محمد بن عبد الكبير، الناشر عالم الكتب القاهرة، 1979، ص 226.

15 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص 203.

16- Belhamissi. M, op.cit, p 31.

17- Ibid, p 107.

18- Lucien Kehren, Les Janissaires in Miroir de l'Histoire, Paris, 1982, p 24.

19 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 185- 188.

20 - نفسه، ص 270.

21 - نفسه، ص 277.

22- Devoux. A : Les édifices religieux de l'ancien Alger, in R.A, 1861, p 371.

23 - سعيدوني ناصر الدين، موظفو مؤسسات الأوقاف في

الجزائر، م، ت، م، تونس، جويلية، 1990، ص 178، 179.

24 - نفسه، ص 186- 192.

25 - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم و تعريب و تحقيق

محمد العربي الزبييري، ش.ون، الجزائر، 1982، ص 119.

26- Haedo. D : Topographie et Histoire générale d'Alger, traduction de Monnereau et A. Berbrugger de joceline Dakhliia, Bouchéne, Paris, 1998, p86.

27- Ibid, p 198.



د/ رايح كنتور

28- Ibid, p 196.

29 - وليام سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم
عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،
1980، ص176.

30 - محمد بن محمود بن العنابي، السعي المحمود في نظام
الجنود، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، م.وك،
الجزائر، 1983، ص52.

31- Haeddo, op.cit, p 167.

32- Ibid, p 85.

33- Ibid, p 147.

34- Boyer. Pierre : « La vie quotidienne à Alger à la
veille de l'intervention française », Hachette, Paris,
1966, pp 147-165.

35- Venture de Paradis, op.cit, p 175.

36 - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 119.

37 - السجلات الأربع للزواج والطلاق، المحكمة المالكية
بقسنطينة، 1787 - 1817، السجل 50.

38 - أبو القاسم سعد الله، دفتر محكمة المدينة أواخر العهد
العثماني 1822 - 1847، هـ.م.ت.م، العجج 37 - 38، جوان،
1985.

39 - سجلات المحكمة المالكية بقسنطينة، السجل الثاني،
المصدر السابق.

40- Haeddo, op.cit, p 176.

41 - فركوس صالح، تاريخ النظم القانونية والاسلامية، دار
العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، 2001، ص 112.



د/ رايح كنتور

- 42 - غطاس عائشة، سجلات المحاكم الشرعية وأهميتها في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بمدينة الجزائر في العهد العثماني، مجلة انسانيات، العدد الثالث، الجزائر، 1997، ص 12.
- 43 - سجلات المحكمة المالكية بقسنطينة، المصدر السابق، السجل الأول.
- 44- Merrouche.L : Recherche sur l'Algérie à l'époque ottomane, Monnaies, prix et revenus, 1520-1830, ed, Bouchéne, Paris, 2000, p 227.
- 45 - صالح فركوس، المرجع السابق، ص 137.
- 46- Kaddour. M ; Sultan djezair suivi de ses janissaires Turcs d'Alger (Fin du XVIII siècle) Par Jean Deny, O.p.u, Alger, 2005, p 64.
- 47 - سبنسر، المرجع السابق، ص 76.
- 48 - قشي فاطمة الزهراء، قسنطينة في عهد صالح باي، منشورات ميديا بليس، قسنطينة، 2005، ص 279.
- 49 - نفسه 280.
- 50- Merrouche, op ;cit, p 230.
- 51- Kaddour, op ;cit, p 64.
- 52- Merrouche op ;cit, p 244